



وحدة الأمة الإسلامية الطريق الوحيد إلى وحدة الإنسانية عند محمد إقبال

تعريب: سمير عبد الحميد إبراهيم

تمهيد:

لقد سبق أن نشرنا ضمن الوثائق مقالا تاريخيا للشيخ أبي الأعلى المودودي رحمه الله حول ضرورة التضامن الإسلامي الذي أثبت فيها أن الإسلام هو العامل الوحيد الذي يمكن أن يجمع الإنسانية بأسرها على أساس أخلاقي متين. وها نحن ننشر مقالا آخر في نفس القضية للأستاذ الفاضل سمير عبد الحميد إبراهيم يقدم فيه موقف الشاعر الإسلامي العظيم محمد إقبال (1938م) يؤكد على نفس الفكرة بل إن محمد إقبال رحمه الله سبق الشيخ المودودي إلى الصدع بالحق في قضية النظرية القومية العلمانية على حين غفلة من أهل الإسلام وظهور غلبة هذه النظرية على العقول والتي سرعان ما زرعت في أرض المسلمين أدت بشمس الخلافة إلى الأفول ولكن الاستعمار الغربي تمكن من زرع هذا الداء في جسد الأمة واستخدم لهذا الغرض سفهاء الناس من سادة المسلمين وكبرائهم فضلّوا وأضلّوا. وكان محمد إقبال مقتنعا أشد الاقتناع بأن هذه النظرية ليست بديهية البطلان في نظر الإسلام فحسب بل إنها هي نظرية معادية للإنسانية ولجميع القيم والمبادئ التي يمكن أن تجمع شمل الإنسانية وتقيم السلام والأمن في العالم. وكان يرى محمد إقبال أن حدوث الحرب العالمية الأولى التي عاشها محمد إقبال وقاسى العالم الإسلامي والإنساني أهوالها لا بد أن يؤدي إلى حرب وقتال ودمار وخراب لا نهاية لها لأن جذور هذا الصراع والتقاتل كامنة في هذه النظرية القومية ذاتها. وقد شهد التاريخ مع الأسف أن تنبؤ محمد إقبال كان صحيحا مائة في المائة حيث نشبت الحرب العالمية الثانية بعد وفاته بشهور وما زال العالم يشهد الحروب والصراعات بالرغم من كل الإعلانات والعهود والمواثيق التي تتكلم عن ضرورة الأمن والسلام ومع

وجود مؤسسات ومنظمات ومحاكم أنشئت لإيقاف الحرب والقتال ولإتاحة الفرص لحل المشاكل بين الأمم والدول بالطرق السلمية. فينبغي أن ننظر إلى أهمية ما قاله ونادى به محمد إقبال وكان هو الصوت الوحيد آنذاك ينادي أهل الإسلام بالصحوة من سباتهم وغفلتهم واغترارهم بالنعرات القومية اللامعة الخادعة، فلا ينكر أهمية هذا الصوت التاريخية كما لا يمكن تجاهل هذه النصيحة حتى في الربع الأول من القرن الواحد وعشرين فإن من أهم أسباب الضعف والوهن والخوف الذي أصاب الأمة هو التفرق والتمزق من جراء التمسك بفكرة القومية الفاسدة التي ما أنزل الله بها من سلطان، وما نحن نتشرف بنشر هذا المقال للأستاذ الفاضل سمير عبد الحميد إبراهيم:

"يؤمن إقبال أن الإسلام هو الذي تتناسب تعاليمه وإقامة مجتمع عالمي؛ فالإسلام لا يفرق بين البشر، والإسلام يرى أن الأرض، أرض الله، سواء كانت أرض الهند، أو أرض العرب، أو أرض الأوربيين، إلا أن هذا المعنى الإلهي الذي يثبت إقبال في أكثر من موضع من مؤلفاته ينطبق على "عبد الله" فقط، ينطبق على المؤمن، فالمؤمن لا يمتلك الأرض فقط بل يمتلك الكون بأكمله يقول:

إنما الكافر حيران له الآفاق تيه وأرى المؤمن كوثاً تاهت الآفاق فيه

فالمسلم لا بد أن يشعر أنه يمتلك العالم كله، لا يهاب أحداً ولا يخشى شيئاً، وهكذا أجرى إقبال على شعره مقولة طارق بن زياد:

طارق أحرق السفن فقالوا: ليس هذا من فعله برشيد
غرباءً ومن لنا برجوع ذا خطر في الشرع غير سديد
أمسك السيف طارق بابتسام قائلاً واثقاً بعزم شديد
ملكنا اليوم خالصا كل ملك أنه ملك ربنا المعبود⁽¹⁾

"أحرق طارق سفنه وقال لجنده: كل بلد هو بلدنا لأنه بلد ربنا"، ومن هنا جاء رفض إقبال لفكرة القومية الغربية، فهو يرى أن لفظ الوطن الذي نستعمله في أقوالنا هو اصطلاح جغرافي، وهو

1- انظر: محمد إقبال، پیام مشرق، "الملك لله"، ترجمة: عبد الوهاب عزام، إقبال أكاديمي، ميكولو رو، لاهور، باكستان، ط1، 1951م، ص63، وأصل الأشعار بالفارسية وهي:

طارق چو برکناره اندلس سفینه سوخت گفتمند کار تو به نگاه خرد خطاست
دوریم از سواد وطن باز چوں رسمیم؟ ترک سبب زروئے شریعت کجا رواست
خندید و دست خویش به شمشیر برودو گفتم هر ملک ملک ماست که ملک خدائے ماست
انظر: محمد إقبال، کلیات، "پیام مشرق"، شیخ غلام علی ایندسز پبلشرز، لاهور، ص199.

لا يتعارض من هذه الناحية مع الإسلام والإنسان بفطرته ينزع إلى حب مسقط رأسه حباً جماً، وهو على استعداد للتضحية من أجله ولكن فكرة الوطنية القومية شيء مستقل تماماً عن حب الوطن، فلقد جعل الغرب من الوطنية نظرية اجتماعية قائمة بذاتها⁽²⁾.

ويرى إقبال أن الإسلام لا ينزع إلى تفريع وحدة الإنسان إلى حقيقتين منفصلتين متمايزتين، وإنما الحقيقة في نظر الإسلام هي بعينها، تبدو دينا إذا نظرنا إليها من ناحية وتبدو دولة إذا نظرنا إليها من ناحية أخرى، وليس صحيحاً أن يقال في الإسلام أن الدين والدولة جانبان أو وجهان لشيء واحد لأن الإسلام كيان مفرد لا سبيل إلى تجزئته⁽³⁾.

وقد ظلت مشكلة الوطنية كنظرية سياسية تشغل بال إقبال حتى أخريات حياته، فقد كان يشفق على العالم الإسلامي من مخاطر اعتناق هذه النظرية التي من شأنها أن تذهب بروح الأخوة الإسلامية وصبغتها العالمية وهي الأخوة التي يقول فيها إقبال: "إن المبدأ الرئيسي لقوميتنا ليست اللغة المشتركة، ولا الوطن المشترك ولا الأهداف الاقتصادية المشتركة بل إننا من هذه الأسرة الأخوية التي أقامها الرسول صلى الله عليه وسلم، إننا أسرة واحدة لأن مصدر عقائدنا واحدة وتقاليدينا واحدة"⁽⁴⁾.

يقول إقبال في ديوانه جاويد نامه أو رسالة الخلود على لسان جمال الدين الأفغاني:

مكر لورد⁽⁵⁾ الغرب كم أعياء الفطن فطنَّ القوم بمعنى للوطن
مركزاً يبغى وأنت في النفاق إنس حتى الشام، دع أمر العراق
"الله هو" من قالها قولاً يوجد لم تعد تحويه هاتيك الحدود
قبضة الطين تسميها الوطن دعك من مصر وفرس واليمن⁽⁶⁾

فإقبال يرى أن التصور السياسي للوطنية لا يتفق والدين الإسلامي بصبغته العالمية وباعتباره حقيقة مفردة لا تقبل التجزئة أو الفصل أو حتى التمييز بين الدين والحياة، وهو يرى أنها لعبة يقوم بها الأوربيون لتشتيت شمل المسلمين ويقول: "إن كان بعض المسلمين يظنون أن بالامكان الجمع بين الدين والوطن (بتصور سياسي) فإنني أحذرهم من أنهم سيواجهون اللادينية في آخر هذه المرحلة، وإن لم تكن

2- سعيد جمال الدين، جاويد نامه، أو إلى السماء، ص 142.

3- إقبال، تجديد الفكر الديني، الترجمة العربية لعباس محمود، ص 177.

4- سعيد جمال الدين، جاويد نامه، ص 143.

5- أي مارتن لوثر الذي قام بحركة ضد الكنيسة مما نتج عنه ظهور فكرة القومية.

6- مجيب المصري، في السماء، ص 97، 98.

اللا دينية فإنهم سيفصلون الإسلام عن النظم الاجتماعية وسيحلونه من مضمونه الأخلاقي". ويرى إقبال أن كل إنسان ينتسب إلى وطن من الأوطان، وأن الإسلام لا ينكر هذه النسبة ولكن يجدر على الدوام أن نضع في اعتبارنا أن العالم كله وطن لنا، وإقبال يرى أن هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم، درس في عالمية الإسلام "حلّ المسلم عقدة القومية، فلقد هاجر سيدنا من الوطن". ويشهد المسلم بالشمس فيقول: "أنا بزغت من مشرقها ثملة بالجلوة، لكنها ظلت تواصل سيرها الخثيث إلى أن استولت على الآفاق كلها، عندما انتصف النهار، وسيطرت على المشرق والمغرب، فنظرة الشمس إذن بريئة عن المشرق والمغرب برغم أنها مشرقية على سبيل النسبة⁽⁷⁾." وقد أعلن إقبال تعجبه من "الشيخ حسين أحمد الديوبندي" لأنه اندفع خلف الأوروبيين في تفسيرهم للقومية: "يا من أعلنت على المنبر أن الأمة بالوطن، وما يدريك ما هو مقام محمد العربي"⁽⁸⁾. وكان من نتاج هذه القومية الغربية مظالم عديدة منها ما أصدره مجلس الأمن على مرأى منه وعلى مسمع أهل فلسطين قرارًا بإخراجهم من ديارهم ظلما وعدوانا.

وقد أرقّت إقبال قضية فلسطين كثيرا، مما جعله يصرخ ويقول: "إن فلسطين لم تكن ميراثا لانجلترا حتى تتصرف في أمرها على هواها، إنها هو مجرد الانتداب الذي افترضته عصبة الأمم، وما قيمة هذا الاقتراح، بل ما هي عصبة الأمم؟ ويوجه إقبال نداء إلى عرب فلسطين يدعوهم للجهاد وعدم الاستكانة. وقد عرض إقبال في ديوانه أرمغان حجاز⁽⁹⁾ تحت عنوان منظومة باسم "مجلس شورى إبليس" مناقشة بين إبليس ومستشاريه عن نظم العالم المختلفة، ويعترف إبليس لمستشاريه أن النظام الإسلامي هو النظام الوحيد الذي يمكن أن يسود العالم فيقضي على إبليس وعلى جميع رعيته، وأعتقد أن الأستاذ المودودي اتبع في طريقة إثباته بأن الإسلام هو الدين الوحيد القادر على تشكيل عالم إنساني واحد أسلوب وطريقة إقبال⁽¹⁰⁾.

وبعد أن نقد إقبال على لسان إبليس ومستشاريه النظام الجمهوري الغربي، والنظام الرأسمالي انتقل إلى النظام الشيوعي يقول إبليس: مجنونون! كيف يستطيع هؤلاء المتشردون الاشتراكيون أن يخيفوني! إن ما بين جنباتي من خطر ليس إلا من هذه الأمة (المسلمة) ففي رمادها تكمن شرارة الأمل،

7- سعيد جمال الدين جاويد نامه، ص 145.

8- سمير عبد الحميد، إقبال وأرمغان حجاز، ص 35، 109، 295. البيت الفارسي هو:

سرود بر سر منبر که ملت از وطن است / چه بے خبرم مقام محمد عربی است

9- انظر: سمير عبد الحميد، إقبال وديوان أرمغان حجاز، طبعة المكتبة العلمية، لاهور.

10- انظر مقال الأستاذ المودودي في العدد السابق، الدراسات الإسلامية، عدد 1، ص 195.

وحتى الآن يوجد فيها قليل من الناس يؤمنون بدموع الأسحار⁽¹¹⁾.

وهكذا يعترف - حتى إبليس - أن الإسلام هو النظام العالمي الذي يمكن أن يسود العالم⁽¹²⁾ كما أشار إقبال في معظم أشعاره عن فساد النظام الشيوعي والرأسمالي⁽¹³⁾.

لقد أهاب إقبال بالمسلمين أن يعتزوا بذاتيتهم ويطرحوا عنهم عبودية تقليدهم للغربيين في كثير مما يجلب عليهم الضرر والشر وهم عن ذلك من الغافلين.

وهكذا غير إقبال رأيه في الأتراك بعد أن قلدوا الغربيين ففضوا على بقية ذاتيتهم ونسوا أحكام

دينهم في غمرة التجديد والتقليد.

ما تغني الترك ما قالوا نشيدا بل قديم الغرب سموه الحديد
مسلمًا إن كنت ذا عقل منير في الكتاب انظر وفي هذا الضمير⁽¹⁴⁾

والحقيقة أن إقبال في سنة 1905م اتجه لمطالعة أحوال قومه وما آلوا إليه وتشاء الأقدار أن تقذف به في بلاد هؤلاء الناس الذين تتغير مصائرهم ليل نهار في أوروبا. في بلاد الإنجليز والألمان، فرأى إقبال بعينه أحوال الشعوب في ذلك الحين، ولا بد أنه أخذ يوازنها بأحوال قومه المسلمين الذين يؤدون كل ما من شأنه أن يقربهم من الله ومع هذا فهم يعيشون حياة العبيد، وأهل أوروبا رغم ما هم عليه وما فيهم يسودون العالم. وعاد إقبال سنة 1908م، وبدأ يفتش ويبحث عن أسباب انحطاط المسلمين وتأخرهم، وأخذ يبحث عما قضى على قوة الأمة الإسلامية، يقول في خطابه إلى الشاعر أكبر إله آبادي (1915م): "الدين بغير قوة إنما هو فلسفة ليس إلا، هذه هي القضية الحقيقية"⁽¹⁵⁾. وإقبال يرى أن: "رأي لا تدعمه القوة ليس إلا فكر وسحر وطلسم"⁽¹⁶⁾. ويقول: "إذا وجد الكليم موسى بلا عصا فلا أساس لعمله"⁽¹⁷⁾.

ومن ثم يقول إقبال إن سياسة الغربيين هي التي جرت المصائب والويلات على البشرية بدلا من أن تكون مصدرًا لرفيها وتقدمها ورفاهيتها، لكم حنا الغاصب لوأد الحرية وإهدار الكرامة الإنسانية،

11 - سمير عبد الحميد، إقبال وأرمغان حجاز، ص 272-295.

12 - انظر: سعيد جمال الدين، رسالة الخلود، ص 128، 144، 146.

13 - شذرات فكر إقبال، ص 83 (بالأردنية).

14 - مجيب المصري، إقبال بين المصلحين الإسلاميين، ص 163، 279.

15 - انظر: سمير عبد الحميد، الأسرار والرموز، دراسة وتحقيق: المكتبة العلمية بلاهور.

16 - منظومة "ماذا ينبغي أن نعمل يا أمم الشرق؟".

17 - ديوان: بال جبريل.

ولم يقف عند جريمة استعباد الإنسان للإنسان في صورة من الصور ورأيته أحكم القيد واخترع قوانين زائفة صوّرها بأنها دعائم الحرية وشوه كلمة الديمقراطية ليتوارى بها أمام غضبة الجماهير وزيف تشكيلاً جديداً سماه عصبية الأمم".

ويقول إقبال: "أيها المؤمن! إن الاستسلام لسياسة أولئك الخادعين تؤدي إلى المحو والزوال والنفاء، إن الموت عطشاً وجوعاً خير من الماء الذي تكدره الذلة والطعام الذي يسميه الهوان".

ويرى إقبال أن حالة المسلمين اليوم تستنزف الدموع من المآقي وتثير اللوعة والشجن، فإن رواة القافلة قد نسوا دينهم بديانهم، واستعبدتهم الشهرة والمال والجاه بقدر ما استعبدهم الغاصبون، وكثير منهم لا يعلمون عن الدين إلا قليلاً وهم مسلمون بأسائهم أو بشهادات ميلادهم إسلاماً جغرافياً وتديناً شكلياً وتعبيراً محلياً أو جنسياً ورسمياً ثم لا شيء بعد ذلك، لقد آان للمسلمين أن يسترجعوا قوة الآباء وأن لا يتبعوا شيطان الاستعمار وأن لا يفتحوا آذانهم وقلوبهم لوساوسه القاتلة وتغريه المسموم⁽¹⁸⁾.

وكما ذكر المودودي أحوال الأمة العربية وما تعرضت له من خداع المستعمرين الإنجليز والفرنسيين⁽¹⁹⁾، فإن إقبالاً كان قد وجه نداء إلى الأمة العربية يأخذ عليهم فيه الإعراض عن طاعة الله والقدوة بالرسول: "... أنتم أيها العرب لا تنكرون في ما تحتويه مواهبكم من معان وما في أرض بلادكم من كنوز ... وخذكم الرسول فانقسمتم وجمعكم ففترقتم، وآلف بينكم فتباعدم وأصبحتن تنظرون إلى الدنيا بمنظار أجنبي، وتنشآون في أرضكم غرباء عن أنفسكم".

أيها العربي كيف طواك سحر المستعمر بسرابه الخادع وكيف نسيت أن عقارب الفتنة مطوية في ثوبه اللامع، إذا لم تزد إبله عن حوضك وتدافع عن أرضك فلن تجد إلى الخلاص من مكره سبيلا، إن دهاء ألقى بالشعوب في طوفان الفتن وقسم وحدة الوطن العربي إلى مائة وطن:

كل شعب قام يبنى نهضة	وأرى بنيانكم منقسماً
في قديم الدهر كنتم أمة	لهف نفسي كيف صرتم أمماً
كل من أهمل ذاته	فهو أولى الناس طراً بالعناء
لن يرى في الدهر قوتين	كل من قلد عيش الغرباء
فكروا في عصركم واستبقوا	طلما كنتم جمالا للعصر

18- الصاوي شعلان، ديوان أقبال، ص 63، 64.

19- انظر: الدراسات الإسلامية، العدد الأول، المجلد التاسع والأربعون، (يناير - مارس 2014م).

واملاًوا الصحراء عزموا واخلقوا مرة أخرى بها روح عمر

دعا إقبال إلى الوحدة الإسلامية، ودعا إلى فكرة الجامعة الإسلامية، إلا أنه أشار بنفسه إلى أن الناس لم يفهموا مقصده ومفهومه منها، ففكرة الجامعة الإسلامية عنده هي كفكرة سياسية ليس لها وجود ولو أنها وجدت أحيانا فإن ذلك فقط يكون في خيال هؤلاء الناس الذين كانوا يتصلون بسلطان تركيا، وجمال الدين الأفغاني الذي يرتبط اسمه بحركة الجامعة الإسلامية كان يحلم فقط بتحقيقها في صورة حكومة سياسية واحدة للمسلمين.

ويرى إقبال أن البعث Pan-Islamism جعل يعني نوعا من المكيدة مركزها استانبول فأفهم المسلمون في العالم ضرورة التخطيط تنوع من الوحدة بين الدول الإسلامية ضد الدول الأوربية ... ويقول إقبال: أما عن الأفغاني فأنا لا أدري هل استعمل هذا الاصطلاح نفسه أم لا؟ لكن الحقيقة أنه نصح كلا من أفغانستان وإيران وتركيا أن يتحدوا ضد التوسع الأوربي وهذا يعتبر مقياس دفاعي حقيقي وأنا شخصياً أعتقد أن جمال الدين الأفغاني كان على حق تماماً في رأيه.

هذا وهناك حالة أخرى ينبغي استخدام هذه الكلمة فيها وهي أنها تحوى تعاليم القرآن، وفي تلك الحالة فهي ليست موضوعاً سياسياً ولكنها تجربة اجتماعية، والإسلام لا يعترف بالجنس أو اللون أو الطبيعة وفي هذه الحالة فإن Pan-Islamism تعنى فقط Pan-humanism وهنا فكل مسلم سوف يكون Pan-humanist ويأمل أن يكون كذلك وعلينا أن نحذف كلمة Pan من Pan-Islamism لأن الإسلام هو تعبير يغطي تماماً المعنى الذي ذكرته (20).
